

تأسيس قاعدة الأمة الأمنية والدفاعية في الهدي النبوي

الأستاذة حفيظة طالب
جامعة الجزائر



لكن النفوس الشريرة والقلوب
المريضة القاسية لم تستجب لدعوة
الحق بل اتخذت من أنفسها أعداء
لمحاربة شريعة الله في الأرض ولمنع
الرسول والذين آمنوا معه من القيام
بمهامهم الشريفة النبيلة، فما كان من
النبي والذين اتبعوه إلا الصبر والمصابرة
والجهد والمجاهدة لإحقاق الحق
وإزهاق الباطل، لتكون كلمة الله هي
العليا.

وقبل استعمال القوة كان لابد من
تأسيس قاعدة أمنية تتمثل في بناء
المجتمع وليس تنظيمه لأن التنظيم

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
النحل: ١٢٥.

تمهيد: من نعم الله تعالى على العباد
إرسال الرسل مبشرين ومنذرين يدعون
إلى عبادة الله عز وجل إلها واحدا لا
شريك له معبودا واحدا، لا معبود بحق
سواه، فمن آمن بالله سبحانه وصدق
برسله فقد خرج من الظلمات إلى
النور وحقق الطمأنينة النفسية والسكينة
القلبية.

يَلْسُؤُوا إِيْمَانَهُمْ يَظْلِمُ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ
وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ الأنعام: ٨٢.

وبانتقال الدعوة إلى المدينة المنورة ولدت الدولة ميلادا واقعيا حيث:

1- يوجد لها دستور وسلطة
تشريعية ورئيس دولة،

2- رعية لها أصرة واحدة هي
الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه
وسلم،

3- ولهذه الجماعة هدف واحد
محدد هو إعلاء كلمة الله على وجه
الأرض كلها،

4- نظام اقتصادي خاص: الغني
فيه كريم، القوي عادل، الضعيف لا
يحرّم، العرض والمال والنفس كلها
محترمة قيمها ولكل واحد الحق في
الدفاع عنها،

5- ونظام اجتماعي: ﴿إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠؛

يعني أنّ مجتمعا قائما بالفعل ولكنه
يحتاج إلى خدمة أو تنسيق أو تنظيم
بعض جوانبه السياسية، الاجتماعية أو
الاقتصادية، لكن البناء هو أمر امتازت
به الدعوة الإسلامية منذ بدئها في
العهد المكي فهي دعوة جاءت لتكريم
الإنسان والحفاظ على مستواه وقيمه
ولن يتحقق ذلك إلا بمعرفة الإنسان
لخالقه الذي يملك أمره ورزقه وعمره
ويهبه الذرية، ويريد منه ألا يخضع
لأحد سواه فكان الأنبياء وخاتمهم
محمد صلى الله عليه وسلم يضع
لل بشرية الدولة التي تعصمهم من
استعباد البشر فبناها بالمنهج الذاتي
للدعوة الإسلامية، فكان على جانب
قواعد الإسلام والإيمان والإحسان
أساسيات أخرى كالمساواة والتقوى
والشورى والمسؤولية وغيرها، ومن
المسؤولية تأسيس القاعدة الأمنية
للمجتمع فالدعوة الإسلامية تعلن منذ
بدايتها أنّ الأمن هو خاصية المجتمع
المؤمن. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٧١،

وكانت هذه في جميع مراحل الدعوة فإذا وصلنا إلى الحرب فإن الحرب كما يقول مصطفى الرافعي في كتابه: "الحرب طبيعة من طبائع الحياة وحقيقة من حقائقها وهي نتيجة طبيعية للمواجهة القائمة أبدا بين الحق وأنصاره والباطل وأشياعه حتى أن بعض المفكرين لا يجد للسلم تعريفا أفضل أو أبلغ من هذا التعريف: "السلم فترة هدنة بين حريين".

فما هو المنهج الذي سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في التمكين لهذه الأمة؟

يقول أعداء الإسلام: "من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحا إلا عندما كان يهدف إلى الغزو، وإن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح (هذا كلام لطفي ليفونيان). وإن محمدا أمر أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة.

وغيرها من الادعاءات التي تدرس

6- هي دولة ذات سيادة لا تمس ولا يمس واحد من رعيته،

7- وجيش لا يغيب منه واحد إذا نودي: "يا خيل الله اركبي".

تأسيس القاعدة الدفاعية: أي

بناء لا بد أن تسبقه هندسة ذات تخطيط معين ومقاييس معينة وهذا يعني دراسة الموضوع بتحديد مكان البناء وفترته الزمنية ووسائله وأساليبه المستخدمة وهدفه الذي أقيم البناء من أجله.

والدعوة الإسلامية ارتكزت على التخطيط السليم في كل مراحلها. وتمثل عناصر التخطيط العلمي للدعوة الإسلامية في:

1. تحديد الأهداف،

2. تعيين الجماهير،

3. تحديد وسائل الاتصال،

4. اختيار الوقت المناسب.

فيقول لهم صلى الله عليه وسلم: (اصبروا إلى أن يأذن الله لكم) وكان يريد بمصابتهم حقن دماء قومهم، وجمع كلمتهم بالحسنى وهم لا يزدادون بذلك إلا عتوا ونفورا وإذاية واستكبارا.

فهل تجد في التاريخ الإسلامي أن الإسلام سل سيفه على بلال وعمار وغيرهم؟

فالواقع يقرر أن سيوف الشرك هي التي كانت قائمة على رؤوس المسلمين ولكنها هانت أمام قوة الإيمان.

إن الإسلام هو دين السماحة والسلام ولم يفرض الله الجهاد لإكراه الناس على الإسلام فالإكراه لا يؤسس عقيدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦.

لذلك فإن الإسلام لا يقهر ولا يجبر أحدا على دين يرفضه؛ وعلى هذا فالحرية مكفولة في أحكام ودستور

في المدارس التبشيرية وبالتحديد فهي تقرر لصفوف المرحلة الابتدائية ليُخرج المبشرون جيلا كارها حاقدا على الإسلام.

لكن الذي يطّلع على التاريخ الإسلامي يرى غير ذلك تماما فإن الإسلام انتشر عن طريق الدعوة بالبرهان والحجة والإقناع والموعظة الحسنة، بالرغم من معاملة قريش للنبي ومن معه معاملة قاسية وإذاقتهم كل أصناف التعذيب، فقد صبر الله نبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا الْأَوَّلُوا الْعَزْمُ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الأحقاف: ٣٥، وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ النحل: ١٢٧.

وكان يأتيه أصحابه رضي الله عنهم بمكة ما بين مضروب ومشجوج، يشكون من جفاء قومهم ويطلبون أن يؤذن لهم في الدفاع عن أنفسهم،

الإسلام.

أما الأسلوب: فقد وضع الرسول

صلى الله عليه وسلم للحرب قواعد وأصولاً، ألزم المسلمين باتخاذها منهجاً وأسلوباً... منها:

1- ضرورة إعلان الحرب قبل البدء في أي قتال حتى لا تكون الحرب وسيلة للخداع والخيانة،

2- الكف عن القتال إذا كف عنه العدو ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٩٣،

3- الاستجابة إلى السلم إن لاحت بارقة أمل فيه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنفال: ٦١،

4- قصر الحرب على الجيش المقاتل وحده دون التعرض لغير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان،

5- تحريم التمثيل بالقتلى، والإحراق بالنار، وتحريم إتلاف

ويقرر ابن تيمية: أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو "السلم" وأن القتال لا يكون إلا في حالة العدوان وكل من سالم ولم يحارب لا يقاتل سواء كان كتابياً أم كان مشركاً ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة: ٨ - ٩.

القواعد الدفاعية: لقد هذب

الإسلام فكرة الحرب من حيث أسبابها وأسلوبها.

أما من حيث الأسباب: فهما سببان اثنان لا ثالث لهما:

1- صد العدوان ودفعه،

2- حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة.

حمص عندما كان المسلمون منشغلين بموقعة اليرموك ولم يستطيعوا حماية أهل الذمة.

وكانت تسقط على الذي ليست له القدرة على دفعها و حسبنا أن العلماء متفقون على أن الجزية: "لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل" وإن مات أحد من الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته ولا يكلف ورثته بأدائها. فما شهدت الإنسانية في حياة الفاتحين مثل هذا التسامح في أخذ الجزية.

كما أباح الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى أن يبنوا بيعهم وكنائسهم وأن يقيموا شعائرهم كما يشاؤون في ديارهم دونما معارضة.

القوى المضادة: في بادئ الأمر كان العداء يظهر من قريش وحدها غير أنه ظهرت أطراف أخرى معادية وبالرغم من ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون انتصروا عليهم

الأموال والتخريب في البلاد، وتحريم تجويع العدو وإيجاب الإحسان إلى الأسير: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ الإنسان: ٨،

6- الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة،

7- عدم التفاخر بالنصر أو التظاهر بالقوة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

وأبى الإسلام أن تكون الغنائم هدفا من أهداف الحرب، ولقد قرر نظام الجزية على غير المسلمين في البلاد التي يفتحها المسلمون، نظير قيام الجند المسلمين بحمايتهم والدفاع عنهم وحراسة أوطانهم وكان الإسلام سمحا في أمر الجزية إذا رأى أهل البلاد من غير المسلمين أن يتكفلوا هم بالدفاع عن أنفسهم وأرضهم، أو إذا عجز المسلمون عن القيام بواجب الدفاع والحماية، مثلما ردت الجزية لأهل

طرف أسلوبه الخاص في القتال تعود
وأجاده. وهذه القوى المضادة هي:

أولاً: قريش: كانت لها قوة لا يستهان بها إذ كان في استطاعتها أن تعبى خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأجود أنواع الأسلحة مزودين بقوة كافية من الفرسان ووفرة المؤن ووسائل التنقل ومعاهدات الصداقة التي كانت بينها وبين القبائل العربية وكانت لها قوة أخرى تمثلها طبقة العبيد وهؤلاء كانوا رجال حرب وقوة أخرى متحالفة معها هي قوة الأحابيش.

ثانياً: القبائل العربية الأخرى: وهي القبائل التي كانت تنتشر في أرجاء الجزيرة العربية، كانت لها علاقة جيدة مع قريش وتخشاها.

ثالثاً: اليهود: كونوا لأنفسهم مجتمعاً منفصلاً لا يرى في بقية الناس إلا أداة لكسب المال عن طريق الربا والخداع في المتاجرة والزراعة.

رابعاً: الروم والفرس:

جميعاً وكان ذلك يتطلب فكراً عسكرياً راقياً يسيطر على هذه الأحداث ويجعل الحركة طوع أمره.

لقد أكد التاريخ العسكري أن دخول المعركة يمر بمرحلتين هامتين:

1- مرحلة ما قبل المعركة،

2- مرحلة الاشتباك.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة الإعداد للمعركة أي مرحلة التنظيم؛ أما مرحلة الاشتباك فهي تعني تكتيكات مواجهة العدو.

وهذه المرحلة تخضع دائماً لفكر القائد، لأنه هو الذي يرتب ويجهز استراتيجية المعركة، وينظم أسلوبها، ويعد منهاجها، ويضع الخطوط العريضة لها، وكلما كان فكر القائد ناضجاً متفهماً للموقف العسكري وللظروف التي تحيط به استطاع أن يجيد التخطيط والإعداد.

والرسول صلى الله عليه وسلم حارب أطرافاً متعددة، وكان لكل

ويطعنوه من الخلف، وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم.

عدم القتال في جبهتين: من الخطأ العسكري البالغ أن يحارب قائد في أكثر من جبهة في وقت واحد، فإن ذلك يضع القائد في موقف حرج ويفرض عليه أن يقسم قواته ويشتت فكره.

والله تبارك وتعالى لم يجعل لامرئ من قلبين في جوفه وليس من المعقول أن يخطط القائد في وقت واحد لعمليتين تختلفان في نوعية القتال وأرض العمليات وظروف القتال. فلم يواجه الرسول صلى الله عليه وسلم معركتين في وقت واحد فحرص أن يكون لقاءه مع كل هذه القوى منفصلاً.

ولعل قريشا قد أدركت أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في مواجهة أعدائه فسعت قبل غزوة الخندق إلى تجميع قوى اليهود على

خامساً: المنافقون: دخلوا في الإسلام خبثاً ومكراً ودهاءاً، وكانوا أشد على الإسلام من أعدائه.

فكان أول ما اتجه إليه فكر الرسول صلى الله عليه وسلم العسكري هو ضرورة إيجاد جبهة داخلية قوية متساندة متآلفة، فأخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أَلَف بين قلوب الأوس والخزرج فقد كان أقسى ما أحزن اليهود هو أن الإسلام أطفأ نار العداوة والبغضاء بين القبيلتين بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إلهابها بوقود من الدسّ والفتنة.

فهكذا نجحت مساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكتلت المدينة بأسرها، وتمكن النبي من أن ينشئ داخل المدينة قوة صلبة صامدة لا تسهل فتنتها.

وبتفكير عسكري سليم كان عليه الصلاة والسلام يرى موادعة اليهود حتى ينتهي من قريش، ليأمن جانبهم أثناء اشتباكه مع قريش فلا ينقلبوا عليه

الذين يقاتلون جند الشيطان وكان يوقن تماما أنه يحارب من أجل خير العالم وصلاحه وليس من أجل سلطة أو جاه أو ثروة فالحياة الآخرة خير وأبقى.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف تمام المعرفة أن الرجال هم أساس المعركة لذلك فقد بذل جهدا كبيرا في توجيه الرجال لتنمية هذه القدرات حتى أن أحد التابعين قال: "كنا نعلم أبناءنا الغزوات كما نعلمهم القرآن".

واهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بصحة الأبدان ودعا إلى العناية بها وطالب بممارسة أنواع كثيرة من الرياضة كالجري والمصارعة والرمي وركوب الخيل.

كما اهتم أيضا بالسلاح وعمل على تطويره وتوفيره كالسيف والرمح والنبال وأسلحة جديدة كالمنجنيق وكذا استعملهم للدروع لحماية أنفسهم من ضربات السيوف ووخزات الرماح.

جانبهم وتأليب القبائل العربية عليه لتكون بقواتها عند اللقاء وكان المنافقون يشاركون هذا التجمع ويشجعون عليه ويؤيدونه، غير أن جمع أهل الباطل متفرق فقد اجتمعوا، ثم ما لبثوا أن اختلفوا وتشتتوا.

الكفاءة القتالية: كانت القبائل

العربية قبل الإسلام تفخر بعدد رجالها وكانت القبيلة ذات العدد الكبير هي التي تملك القوة وفرض الرأي والسلطة ونحن نعلم أن الجند المسلمين نشأوا وعاشوا في البيئة الصحراوية التي عاش فيها رجال قريش، هذه البيئة أكسبتهم جميعا صفات واحدة كالشجاعة والفروسية والقدرة على النزال والكرّ والفر، ولكن كسب الرجال المسلمون المعارك لتمييزهم عن رجال قريش في معنوياتهم المرتفعة وقدراتهم القتالية وهذا يرجع أساسا إلى تعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن فأدركوها تماما وعملوا في حدودها وكان كل رجل مسلم يعي تماما أنه أحد جند الله

للرجال الذين أسهموا فيها ليدرسوا طبيعة الأرض حول المدينة والوقوف على طرقها ودروبها وتضاريسها.

الخاتمة: حارب رسول الله صلى الله

عليه وسلم قريشا في منطقة صحراوية وحارب اليهود في حصونهم وحارب هوازن وثقيف في وادي حنين وتحرك بالجيش الإسلامي من المدينة إلى تبوك في أعظم مسيرة شهدتها تاريخ الحرب فوق رمال ساخنة وتحت شمس حارقة وفي بيئة يقل فيها الماء وينعدم الظل، استخدم أسلحة العرب وزاد عليها أسلحة جديدة واقتبس فكرة الخندق من الفرس كوسيلة دفاعية لم يكن لأعدائه من العرب علم بها أو خبرة.

ولم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم معركة إلا وقد درس ظروفها دراسة عميقة. لقد كان محاربا فذاً قديرا لم ترهبه كثرة ولم تخفه قوة، وبقدر ما كان عليه الصلاة والسلام شديدا في مواجهة أعدائه كان سمحا وقت النصر كريما في معاملتهم وما يؤكد هذا عفوه

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يعد الرجال والسلاح فإنه عليه السلام أدرك أن هذا الإعداد لا بد له من إنفاق ولهذا حضّ الناس على الإنفاق وأن يكون صادرا عن إيمان وعقيدة لا عن كره وخوف: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ البقرة: ١٩٥.

وكذلك من عناصر تأسيس القاعدة الأمنية والدفاعية إرسال السرايا والهدف منها:

- 1- إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة في المدينة،
- 2- بعث الرعب في قلوب اليهود وإيقاف سبل إثارة الفتن ونيران العداوة،
- 3- إن بقاء المهاجرين في المدينة دون عمل يهيئ لهم حياة الهدوء والخذلان وهذا يؤدي إلى إفساد النفوس فلا بد أن يكون المسلمون متيقظين ومستعدين لمواجهة الأحداث التي كانت على وشك الوقوع،
- 4- كانت هذه السرايا فرصة

حروبا دفاعية تستهدف حماية الدين
والدفاع عن الداخلين فيه.
ملاحظة: للموضوع هوامش .

التاريخي عن أعدائه من أهل قریش يوم
الفتح: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وعفوه
عن أسرى هوازن.

ويؤكد تاريخ الحروب النبوية أنها
لم تكن حروبا هجومية ولكنها كانت

